دراسة: "العلمنة والأمركة" حلول فاشلة!

نبّه باحث سعودي من أن اقتلاع جذور الإرهاب في مجتمع مُتدين ومحافظ بطبيعته كالمجتمع السعودي لن يكون عبر "لبرلة" المجتمع، أو "علمنته"، أو "تغريبه"، أو "أمركته".

وشدد الدكتور يوسف العثيمين على أن دعاوى البعض بهذا الخصوص "لن تنجح" كما أنها في ظنه ستظل محرومة من "القبول الشعبي والتفاعل المجتمعي، ولن تحوز على رضا عقلاء المجتمع وساسته".

لكنه على الرغم من ذلك لم يرجع أسباب الإرهاب والتطرف إلى محاولات "العلمنة واللبرلة" التي أشار إليها وإنما رأى أسبابه محصورة في " خطاب دعوي ووعظي متشدد، اكتسح الساحة في قدرته على تقديم إجابات سريعة وساذجة ومُبسطة، وغير واقعية للمسائل الكبرى".

وأكد العثيمين الذي يشغل منصب أمين عام مؤسسة الملك عبد الله لوالديه للإسكان التنموي أن أي معالجة لهذا الواقع لن تنجح إذا ما تجاهلت دواعيه، أو تجاهلت الاعتراف بأن "أسبابه محلية".

وفي ما اعتبره العثيمين خاتمة الدراسة التي أصدرها أخيراً في ١٤١ صفحة تحت عنوان: "نحو استراتيجية وطنية شاملة لمكافحة الإرهاب في السعودية" أكد أن "المراقب للمشهد الداخلي في التعامل مع الإرهاب يلحظ أن الجهد العام يكاد يكون محصوراً في التعاطي الأمني، وهو فعّال وناجح ومُبهر... إلا أن فعاليته قصيرة المدى، فالاعتماد عليه وحده، وفي حال استمراره، قد يقود إلى فتنة داخلية، وردة فعل سيئة تجاه النظام والدولة، خاصة إذا وجدت شرائح من المجتمع أن أعداداً كبيرة من الأسر قد فقدت الابن والعائل والزوج والقريب، إما بالهرب والتخفي، أو بالسجن، أو بالقتل... كما أنه ليس من الإنصاف والعدل أن نضع عبء مكافحة الإرهاب على المؤسسات الأمنية وحدها، فالأمن وأدواته -عادة- هو الخيار الأخير، وليس الأول".

وأضاف أنه "مع التسليم بوجود جهود فكرية مصاحبة للجهد الأمني، الا أنها جهود تتسم - إلى حد كبير - بالسطحية والتقليدية، والعاطفية وضعف التأثير، وتتعامل مع أعراض المشكلة،وليس مع جذورها، وذلك عبر آليات (المحاورة) مع الإرهابيين، و(التوعية) مع المتعاطفين من سائر أفراد المجتمع.

فقد بدا واضحاً للمراقب المتخصص، أن الإرهابيين أكثر من القائمة المشار إليها، والقائمة تزداد وتتجدد، واتضح أن مكافحة الإرهاب في المملكة تتطلب ما هو أعمق من (المحاورة) مع الضّالين، وما هو أكثر من (التوعية) مع المتعاطفين، وبدا جليّاً - أيضاً - أن

الإرهاب (بخير) لأن جذوره ومناخاته (بخير)، ولم يُقض عليها بعد، فهي متمددة في الفكر والثقافة، وفي مؤسسات الدولة، وفي بنية المجتمع المحلية، وأن الإرهاب قوي وضعف، وظهر وكمن، تبعاً لظروف محلية وإقليمية ودولية، سيظل موجوداً".

الخطر الأهم من "القوائم"

ورأى "الخطر الحقيقي الذي يواجه الدولة، ويجب أن تتنبه له، وتوجه له كافة إستراتيجيتها، ليست قوائم الإرهابيين أو المطلوبين ومهما طالت، فهؤلاء مقدور على اقتناصهم، عاجلاً أم آجلاً... (الخطر الحقيقي) هو في تلك الدوائر المتداخلة من المتعاطفين، التي تعيش بيننا ومعنا، وتنقل فيروس الإرهاب في شرايينها، وتمد - باستمرار - المجتمع بالإرهابيين، وتساعدهم لوجستياً وعاطفياً، أو تقدم لهم الحماية والتمويل، ناهيك عن حرّية الحركة وشرعية التصرفات.

ويأتي خطر هذه الدوائر من أننا، على خلاف المجتمعات الأخرى، التي يظل الإرهاب فيها مهما اشتد وقوي، يظل محصوراً أعداد محدودة، وعلى هوامش المجتمع وحواشيه، يميناً ويساراً، وليس في وسطه... ومن هنا تأتي أهمية أن تُثار الأسئلة الكبرى التي تنفذ إلى العمق، وتُعيننا على التعرف على الأسباب والدوافع، والعوامل والمناخات، والظروف والمنابع، التي تُغذي الإرهاب داخل المجتمع السعودي. وتُعيد إنتاجه، وتُجدد خلاياه، وتنشره، وتروج له،

وتجعل الشاب البريء (إرهابياً)، والمواطن البسيط (متعاطفاً)، وهنا -تحديداً-، يجب أن ينصب الجهد، ومن هنا - أيضاً - تبدأ جهود المعالجة".

وأضاف: "لقد بات واضحاً أن هناك إطاراً فكرياً وأرضية اجتماعية مُهيئة، أعطت الإرهاب سهولة التجنيد، و"جاذبية" الحماس في عقول الشباب وقلوبهم، و"تعاطفية" القبول في نفوس شرائح واسعة من المجتمع السعودي، بدرجات مختلفة، وهنا، مكمن الخطر، وبيت الداء، وفي الوقت نفسه، مصل الدواء".

وعلى الرغم من تردد الكثيرين في الجزم بالسبب الرئيس وراء الإرهاب إلا أن العثيمين أردف قائلا: "في المجتمع السعودي، لا يجد الباحث الاجتماعي صعوبة في الجزم، بثقة علمية، بأن ذلك الضخ المتواصل والمركز المنبعث من الخطاب الدعوي المتشدد، الذي سيطر على بعض وسائل الاتصال الجماهيري، وعلى ساحة المجتمع وبعض مؤسساته الدينية والتعليمية والتربوية والإعلامية، ردحاً من الزمن، واتسم بالتشدد والتعبوية والنصية والأحادية والفوقية والإقصائية وكره المخالف، ووجه رسائله النارية المغرية لبعض شرائح المجتمع، (لا بد)، بسبب ذلك (الضخ المتواصل) أن يجد الإرهاب، بشتى أنواعه الفكرية والحركية لنفسه (تعبيراً) في زمان مُعين، وفي مكان مُعين، وفي شخص مُعين، وفي ظرف معين... أما الطرق على العوامل النفسية (الإحباط)، أو السياسة (الديموقراطية)، أو سوء الأحوال المعيشية (الفقر)، التي يُقال إنها

تولّد الإرهاب، فهذه مجرد تفاصيل، أو مُغريات، أو مُحفزّات، ليس إلا... خاصة في المجتمع السعودي".

ولكي ينجح السعوديون في معالجة الإرهاب قال "لا بد أولاً من الاعتراف بأن الإرهاب مشكلة داخلية، وأن الذي أوصلنا إلى ما وصلنا إليه هو ذلك الخطاب الدعوي الوعظي المتشدد، الذي اكتسح الساحة في قدرته على تقديم إجابات سريعة وساذجة ومُبسطة، وغير واقعية للمسائل الكبرى، التي تعترض حياة السعودي البسيط، مما أكسبه جماهيرية وجاذبية وشعبية بين مختلف الأوساط، في ظل غياب الخطاب الديني التقليدي الذي حصر نفسه في مسائل الحلال والحرام، مما أفقده شعبيته وتأثيره، وقدرته التوجيهية والتنويرية على الشباب، وتوارى بعيداً عن الأنظار.

وإذا كان المجتمع السعودي يُوصف بأنه مجتمع مُتدين ومحافظ بطبيعته، وهذا صحيح، فإن اقتلاع جذور الإرهاب فيه لن يكون عبر "لبرلة" المجتمع، أو "علمنته"، أو "تغريبه"، أو "أمركته"، كما يدعو البعض، فهذا الطرح لن ينجح، ولن يجد القبول الشعبي والتفاعل المجتمعي، ولن يحوز على رضا عقلاء المجتمع وساسته".

وأشار إلى إن المعالجة ممكنة ولكن "عبر الخروج بإستراتيجية وطنية شاملة، تقوم على مسارين متوازيين، المسار الأول، تجديد الخطاب الديني نفسه، والسعي إلى إظهار خطاب ديني متسامح مستنير، وتصالحي مع النفس ومع الآخر، في الداخل والخارج...

خطاب واقعي هادئ، يُقدم توصيفاً جذاباً وراشداً لموقع الإنسان السعودي في الكون والحياة، ويستجيب للمسائل الكبرى التي تُواجه وتُقلق (سعودي القرن الواحد والعشرين)، الذي يعيش في قرية كونية، مع أهمية أن يكون ذلك عبر عمل مؤسسي، ينتج هذا الخطاب ويراقبه ويصونه، ويُحافظ على وسطيته، ويضمن استمراريته، ويحمي مُعتنقيه والمُدافعين عنه".

والمسار الثاني، هندسة المجتمع هندسة شاملة... هندسة تتناول عدداً من المجالات الحيوية ذات المساس بالشأن العام، وفي أدوار الدولة ووظائفها وخدماتها، وفي بُنية المجتمع ومؤسساته، من أجل (إضعاف جاذبية) الأيدلوجيا المتشددة التي (لحست)، ونخرت في عقول الصغار وقلوبهم ووجداناتهم، وتشبعت بها نفوس المتعاطفين من الكبار".

مرجعية تحاسب!

وحذر العثيمين من أن يفرق دم مسؤولية معالجة الإرهاب "بين القبائل" والجهات، " فلكي تنجح جهود المملكة في مكافحة الإرهاب عبر هذه الإستراتيجية، فلا بد - أيضاً - من مرجعية مُوحدة لهذه الإستراتيجية في الدولة، يكون لديها هذا "الملف"... مرجعية تكون من مهماتها أن تدرس، وتتابع، وتجمع المعلومات، وتقدم الدراسات والأبحاث، وتقيم الجهود، وتمد ولاة الأمر بتقارير دورية على مدى تقدم جهود المعالجة، والعقبات والمعوقات، إن وجدت، بأسلوب علمي واحترافي". والباحث العثيمين إضافة إلى كل ما سبق أكد أن

الفرصة المواتية في بلاده اليوم تتجاوز كبح جماح رجال تنظيم القاعدة والمتعاطفين معهم إلى إحداث تغير نوعي شامل في مفاصل البنيان الاجتماعي السعودي.

وقال: "أمام الدولة، الآن، فرصة تاريخية ذهبية قد لا تتكرر في أي مفصل تاريخي من تاريخ تطور المملكة السياسي والاجتماعي، ليس فقط لكسر عظم الإرهاب والتشدد والتزمت والانغلاق... ولكن لإحداث تغيرات نوعية واسعة في هيكلية الدولة ومؤسساتها وآليات عملها، وإصلاح شامل في بنية المجتمع السعودي وثقافته، وفي مؤسساته الدينية والرسمية والخيرية والأهلية، وفي مجالات وقضايا ما زال بعضها يُعد من "المحرمات" الدينية والاجتماعية والسياسية والإدارية مثل: تحديث بعض مؤسسات الدولة وإعادة هيكلتها، الشفافية في الشأن العام، المشاركة الشعبية، حقوق الإنسان، حقوق الأقليات، قنوات التعبير والحوار، الحريات العامة، قضايا المرأة، العنف الأسري، الانتخابات، الآثار، الآخر، الخصوصية، والهوية، وغيره كثير".

وعزا ذلك بأن "الجو العام مهيأ، داخلياً وخارجياً، لتقبل مشروعات الدولة الإصلاحية في هذه المجالات، وعلى الدولة ألاّ تُفوّت هذه الفرصة التاريخية... ولكن ذلك لن يتم إلا بقليل من البلاغية، وكثير من الهندسة الاجتماعية، والكثير الكثير من الإرادة السياسية... الإشارات تُوحي بالتفاؤل".